أحلام معروف

اليأس الأنيق

الخامسة فجراً

أحلام معروف

اسم الكتاب: اليائس الأنيق

اسم الكاتبة: أحلام معروف

نوع العمل: رواية

تصميم الغلاف: جنى جابر

الرقم الدولي EBIN: 16-1-229-230426

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

اليائس الأنيق

رواية

أحلام معروف

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذين اتخذوا على هامش الحياة مقعدًا...

مقدمة

بعض الأشخاص يرثون اليأس، ويعيشون حالة اليائسين، فيلبسون هذه الحالة في دنياهم، وينشرونها حولهم، ولا يرون حلولًا لما وصلوا إليه، ويبقون بوهمهم متقوقعين بغرفة سوداء، ينظرون إلى الدنيا كما يريدونها، يائسة بائسة سوداوية، ويصبحون يميلون للسواد والوحدة والبُعد عن كل شيء يشعل بقلوبهم أملًا.. حتى يصل بهم الحالُ إلى فعلِ ما لا يخطر على بالِ عاقلٍ!

أما عن «سراب»، فقد عاشت اليأس رغم سلامتها.. ما زال الأمل يتنفس في روحها ولم يمت، لكن اليأس مرض يأكل الإنسان ببطء، حتى يغلق عنده نفحات الأمل شيئًا فشيئًا...

اليائس الأنيق

أقف في زاوية حياتي، وأمشي بالقرب من الحائط.. لا أطيق أن أرى أحدًا، ولا أطيق أن أرى! أنا، مَن أنا؟ لا أحد يدركني، بينما الكل يعرفني.. أنا، من أنا؟ لا أحد يراني، بينما الكل ينظر إليّ.. أنا، مَن أنا؟ لا أحد ينصت إليّ، بينما الكل يسمع صوتي.. أنا من أنا؟ لربما حي ميّت! لعل الدنيا لا تليق بأمثالي.

كان ذلك اليائس الذي يجلس أمام شباك غرفتي على ذلك المقعد يشبهني كثيرًا.. كنت أرى فيه يأسي من المجتمع وكرهي له. كنت أعده دائمًا قدوتي في اليأس، فتعلمت منه حتى صرت أنا الأفضل.

رأيته أنا في أمِّ عيني، رأيته حاملًا حقيبته عند الخامسة فجرًا، مرتديًا ككل يوم بدلته السوداء مع قميصه الأبيض المفتوح زرين من الأعلى، واضعًا على رقبته ربطة عنق سوداء غير مربوطة، وكأنه لا يبالي بالدنيا وما فيها.. أظن أنه اختار الفجر، إذ لا مكان للتافهين فيه.. كان يحمل دائمًا أوراقًا وعلبة سجائر. كان ينهي علبة سجائر كاملة في جلسته. كان وحيدًا تمامًا حتى في أفكاره، زاهدًا شاردًا. أحببته من بعيد، حتى إن يومي كان ينتهي فور تركه لهذا المكان. صرت أجرِّب كل شيء مثله، وها أنا الآن لدي القدرة على الكتابة، وأصبحت مدمنة سجائر، فكلما كان يتناول واحدة، أحمل الأخرى، حتى أصبحت مدمنة عليها مثله تمامًا. أبتسم ابتسامة يأس، وأغمض عيني للحظة حين كنت أضعها على شفتي وأدخنها، حتى صرت أعرف لذتها.

ولكن إلى أين ذهب؟ كان ذلك اليوم كأنه آخر أيام حياتي.. حين رأيته حاملًا حقيبته متجهًا إلى حيث لا أدري، حتى هو كان يمشي يائسًا ناسيًا كل ما خلفه. هلع قلبي خوفًا عليه. أصبحت أراقبه بلهفة، مرتبكة أنتقل بين شباكَي غرفتي بِحَيرة، وكأنني أريد أن أناديه: يا هذا! إلى أين أنت ذاهب؟!

لم يجلس في ذلك اليوم على المقعد، تركه فارغًا ومضى.. عندما غاب عن عيني أسرعت إلى ذلك المقعد، ويا له من مقعد يائس؛ سجائر في كل مكان، أوراق ممزقة هنا وهناك، بعض الأقلام المرمية، مكان يائس شبيه بروحي بكل ما في الكلمة من معنى.. عند عودتي إلى المنزل لفت انتباهي ورقة ما زالت على المقعد.. عرفت من خلالها أنه ذاهب إلى نيويورك، وسيكون في فندق اسمه الأحلام، كما أنني عرفت اسمه؛ فقد كان مكتوبًا في نهاية الورقة: «جاد».. أخذت الورقة وعدت مسرعة إلى المنزل أفكر وأخطط: كيف سألقاه مرة أخرى!

اليوم، وبعد شهرين على غيابه.. وبعد أن صبّ عليَّ اليأس صبًّا.. ها أنا أقلده حتى في رحيله.. حاملة حقيبتي وزاهدة فيما سيأتي.. أسير على أمل العثور عليه..

ها أنا عند الخامسة فجرًا، على شرفة غرفتي في فندق الأحلام، أستمر في مراقبته كعادتي، مقلدة كل حركاته ومن دون التدقيق حتى، فأنا قد أدمنت كل شيء فيه.. بعد بضعة أيام قررت النزول من غرفتي قبل مجيئه بنصف ساعة.. فكنت على استعداد للتعرف عليه من قرب.. ارتديت إحدى بدلاتي السوداء، مع كعب متوسط الطول، واضعة أحمر الشفاه.. فأنا يجب أن أكون يائسة، ولكن أنيقة مثله تمامًا! ولكن عندما

رأيته خارجًا من الفندق، تملكني الخوف من أن يرفضني ظنًّا منه أنني كالآخرين.. فعدت أدراجي إلى الفندق، ومررت من جانبه، لكنه لم يعرني أي اهتمام.. الجميل أنني استطعت أن أشتم رائحة عطره الجميلة، كم يمتلك فائضًا من الأناقة!

مرت عدة أيام، وأنا وهو غارقان؛ هو بكتابته، وأنا بتفاصيله.. ولم يتملكني الملل لحظة. كنت أراقب أدق تفاصيله كل يوم، وكأنني أراه للتو.. ولكن تَحَيَّرْتُ في أمره اليوم، كان مختلفًا قليلًا، فقد كان مبتسمًا! وكأنه راضٍ على شيء ما، ولكنك علمتني أن أكون كالجماد، لا يغريني أي شيء إلا لذة السيجارة، فلماذا أنت مبتسم اليوم على غير عادتك؟ أأبتسم مثله؟؟ ولكن على ماذا!! فأنا أصبحت أكثر منه يأسًا، لا أستطيع حتى الابتسامة..

أعيد مشهد الرحيل للمرة الثانية.. أما الآن، فسأشد رحالي إلى باريس، فالنقود التي في حوزتي التي قد سرقتها من خزنة والدي تكفي للذهاب وراءه.. أسرعت خلفه مع حقيبتي إلى المطار.. وها هو يجلس وحيدًا لا ينظر بوجه أحد.. كان رفيقه في تلك الجلسة فنجان قهوته والسيجارة.. أعلنوا أن الطائرة أمامها ربع ساعة للإقلاع، فخطر لي أن أطلب فنجان قهوة، فبالطبع سيكون مرًّا مثلما أظن أنه قد طلب.. بعد

لحظات، هيأ نفسه للصعود إلى الطائرة، فاتبعته.. كان أغلب أوقاته ينظر من شباك الطائرة مستأنسًا، بينما كنت أنا مستأنسة به.. رأيته قد اختار عصير البرتقال وسلطة الخضار.. فطلبت مثلما طلب، وأدركت حينها ما يأكله اليائسون! حين وصولنا، اتبعته خطوة بخطوة، وكأنه بوصلة أستدل بها على طريقي.. لكنني أضعته بين زحمة البشر. قلقت في بادئ الأمر، لكنني تذكرت اسم الفندق الذي يختاره في كل مرة.

عند وصولي سألت عن اسمه كما فعلت في نيويورك، لأطمئن أنه سيكون هناك. أسرعت على شرفة غرفتي، فكنت كالمعتاد قد اخترت غرفة تواجه مقعدًا هادئًا.. لكن حان وقت الساعة الخامسة فجرًا ولم يأتِ!

انتظرت، وبعد ساعات لفت انتباهي سيارة سوداء فاخرة، وإذا بـ«جاد» ينزل منها شاكرًا صاحبها على إيصاله.. بدأت التساؤلات تأتي دفعة واحدة: تُرى مَن يكون ذلك الرجل الذي أوصله!! وكيف في الأصل يركب «اليائس الأنيق» في هذه السيارة الفاخرة!! ألا يرى صاحبها تافهًا؟ لماذا كلما اقتربت منه أجده يقوم بما لا يشبه اليائسين؟

خاصمته ليوم على ما فعله فلم أراقبه! بعد ذلك اليوم انتظرته بلهفة على الشرفة.. ولكن كان معه في ذلك اليوم حاسوب، ولا أدري ماذا

يكتب!! أظنه أراد استعمال هذا الجهاز بدلًا من الورقة والقلم.. ولكن الجيد أنه ما زال يتقن جيدًا لذة السيجارة.. عند الساعة السابعة كعادته عاد إلى غرفته، وعدت بدوري مرهقة كارهة الدنيا والآخرين، منتظرة ليحين وقت الانتحار لديه فأشاركه إياه كما شاركته كل شيء!

عند الرابعة عصرًا طلبت إحضار سلطة الخضار وعصير الليمون، ولكن لم يجبني أحد، فقررت النزول غاضبة.. بدأ يعلو صوتي شيئًا فشيئًا على السكرتيرة.. ونظرات الحضور تتبعني بخوف، وكأنني مجنونة.. وإذ بصوت رجل من ورائي يقول بصوت هادئ:

– المعذرة يا آنسة، هل يمكن أن تخفضي صوتك قليلًا!

(التفتُّ إليه إذ زاد غضبي.. وإذا به «اليائس الأنيق»، وكأنه شعر بحاجتي إليه، وجاء ليحميني من عصابة البشر!)

– أنت الوحيد الذي يمكنك أن تخلصني من هذه الحشود.. أنت الوحيد الذي يمكنك أن تفهمني..

لم يفهم ما قلته، ورأيت علاماتِ الاستغراب تنال منه.. وبدأت السكرتيرة تدافع عن نفسها قائلة كلمات لم أفهمها.. رد عليها بلطف باللغة الفرنسية، وكأنه يقول لها: تريثي!

تعجبت لهذا الموقف الذي لم أفهم ما قيل فيه..

نظر إليّ بلطف مبتسمًا:

- كيف يمكنني مساعدتك، أنا صاحب هذا الفندق.. وأعتذر بدوري إذا تم إزعاجك..

- ماذا تقول؟؟ صاحب الفندق!! (وبدأت يداي تضرب صدره بقوة).. كنت أعدُّك «يائسًا»، كيف يمكن أن تكون صاحب هذا الفندق! (أصبحت كالمجنونة، أركض هنا وهناك) ما الذي أتى بي إلى هنا! بسببك كل ما حصل معي.

أما عنه، فلم يتفوه بكلمة واحدة.. بقي مكانه ينظر إليَّ وكأنه يبحث عن شيء ما في وجهي وعيوني وجسدي.. وبعد إرهاق وصراخ لم أعد أشعر بشيء.

استيقظت في غرفة بيضاء فارغة، وقد ربطوا يديَّ في السرير وكأني مجرمة.. بعد عدة أيام وبعد أن حققوا معي.. أخلوا سبيلي وأعادوني إلى بلدي الأم..

عند عودتي إلى البيت كنت خائفة من ردة فعل والدي.. صعدت المبنى قلقة.. فتحت الباب، ولكن لم أجد أحدًا.. ذهبت إلى جارتي سائلة عن والدي:

– أين كنتِ يا «سراب»؟ كان والدك قد بحث عنك ولم يجدك، وبعد أن فقد الأمل في العثور عليكِ، تعب وأصبح وحيدًا وفقد حياته.

لم أدرِ حينها كيف كان يجب أن تكون ردة فعلي، أأبكي، أم أزداد يأسًا، أم ماذا؟ ولكن لم تنزل من عيني أي دمعة.. أظن أنني اخترت أن أزداد يأسًا!

ازدادت وحدتي في أرجاء المنزل.. لم يعد يُسمع إلا صدى صوتي.. عاد شوقي لوالدي الذي لم يحصل! وإن استمتعت يومًا بالجلوس معه.. عاد اشتياقي للمَّة عائلة لم أشعر يومًا بانتمائي إليها!!

بعد شهر من عزلتي، ورغم الصدمة التي واجهتها من قبل ذلك الرجل، ما زلت أقف كل يوم كعادتي على شرفة غرفتي عند الخامسة فجرًا منتظرة ذلك الخائن، وعلى يقين أنه سيعود يومًا ما..

وبالفعل هذا ما حصل.. فقد رأيته جالسًا على ذلك المقعد، ينظر إلى شرفات المنازل وكأنه يبحث عن منزلي، وكأنه يعلم أنني طالما راقبته من هنا.. حين رآني أسرعت إلى الداخل، وأغلقت النافذة بقوة.

عند الساعة السادسة عصرًا دقَّ باب المنزل، فجارتي منذ عودتي إلى المنزل تطمئن عليّ كل يوم.. فتحت الباب وإذا به «اليائس الأنيق»، وإذا به «جاد»..

– مرحبًا «سراب»، كيف حالك؟

جمدت أمامه للحظات بوجه باهت وعينين ذابلتين، فأنا لم أعد «اليائسة الأنيقة»؛ تمسكت بالأولى فقط.. (ارتبك «جاد»، ثم مد يده)

– أنا «جاد»، صاحب فنادق الأحلام..

كانت مشاعري حينها مليئة بالحقد.. استمررت في النظر إليه بغضب، ثم أزاح يده، وقال مبتسمًا وعلامات الارتباك بادية على وجهه:

– لا مشكلة، كنتُ أود أن أتعرف إليكِ، وقد جئتكِ بشيء يخصك..

– لا شيء يخصني سوى أقلامي وأوراقي وعلبة السجائر.. فما معك، فاحتفظْ به لنفسك..

– وما يوجد معي هو شيء مما ذكرتي..

– أعطني ما معك واذهب، فأنا لا أطيق التكلم مع أحد.

– وما بهم الآخرون؟ لماذا لا ترغبين في وجودك بين الملأ؟

– يا للعجب (مبتسمة بسخرية) أنت الذي علمتني الهدوء والسكينة، واليأس والوحدة.. علمتني أن أكره أن أكون جليسة التافهين أمثالك.. علمتني أن أكتب، وألا أتمتع بشيء في هذه الدنيا إلا بلذة السيجارة..

– أنا لا أجيد كل هذا يا «سراب»، حتى الكتابة فكنت دائمًا أحصل على علامة متدنية في الإنشاء عندما كنت طالبًا.. حتى لذة السيجارة التي تكلمتِ عنها، فأنا أعمل على إيقاف التدخين يومًا بعد يوم..

– وماذا عن وحدتك وجلوسك يائسًا زاهدًا؟؟ ماذا عن هذا كله؟؟

– لن أجيبك حتى تقولي لي هل تريدين ما معي؟

– قلت لك هات ما عندك واذهب من هنا..

– أعطيك إياه بشرط أن تقبلي دعوتي على الطعام غدًا صباحًا، وأعدك أن تتلقي ما تريدين من إجابات.. سأنتظرك غدًا عند الساعة السابعة صباحًا تحت المبنى..

(ثم ذهب، ولم يدعني أتكلم أو أرفض عرضه)..

دخلت منزلي شاردة، واستلقيت وبدأت أفكر: تُرى لمَ عاد «جاد»؟ وماذا يريد مني؟ سأذهب معه لأعيد ما بحوزته، وأعود إلى عالمي اليائس.

لم يأتِ فجر اليوم التالي.. وعند السابعة كنت أنتظره على الشرفة، وإذا بسيارة بيضاء فاخرة تقف تحت المبنى، وها هو «جاد» ينزل منها ناظرًا إلى الأعلى ملوحًا لي بيده أن أنزل إليه.

انتعلت حذائي ورحت بثيابي الباهتة اللون ووجهي الشاحب، فأنا كنت قد تخليت عن الأناقة، وأظنه من خلال ما بدا على وجهه لم يعجبه ما ارتديت..

كان المكان المقصود هادئًا جدًّا؛ أشجار في كل مكان في وادٍ، لا تستطيع أن تحيد بنظرك عن هذا المنظر. لم يكن في ذلك المكان أحد..

تركني «جاد» سارحة في هدوء هذا المكان مع وجهي المتعب وحالتي التي يرثى لها..

– «سراب»، تفضلي بالجلوس على المائدة.

كانت مائدة تحتضن طعامًا من عدة أصناف.. جلست بعد أن أزاح لي الكرسي.. ثم أشار لي بعد الجلوس أن أبدأ..

– جئت فقط بسبب شرطك لي، ولكي آخذ ما يخصني..

– إنها أوراقك التي كنتِ تدونين عليها ما يحصل معك..

– وكيف حصلت عليها؟؟

– فتشنا غرفتك في باريس لنعلم مَن أنت، وبعد أن قرأت هذه الأوراق اتضح لي ألا داعي من أن أخاف منكِ، وقررت أن أتعرف عليكِ، فأنت فتاة تمتازين بصفاء روحك..

(ثم أكمل، وأنا ما زلت أستمع): أنا سامحتك على ما قمتِ به في الفندق، وأظن أن ما فعلتِه كان نتيجة للقليل من اليأس والغضب مني..

– لا بـل الكثـير، وإذا لم تعطـني الأوراق وتعـدْني إلى المنـزل حـالًا، فسأريك غضبي الذي لم تره (وطرقت بيدي على الطاولة).

– اهـدئي يا «سـراب»، اهـدئي! دعينـا نـتكلم بهـدوء شـبيه بهـذا المكان الهادئ.

نظرت إلى الأشجار العملاقة ثم هدأت للحظات..

– ماذا تريد مني؟

– أريد أن أعرفك أكثر وأساعدك.

– ولكني لا أحتاج ولا أريد المساعدة من أحد، وخاصة منك.

– أخبريني عما يزعجك مني؟

– ظننت وظننت.. وفي النهاية خاب ظني.

– فيما قرأت اتضح لي أنك أحببتِ يأسي وأحببتني، وبسبب حبكِ الكبير قررتِ أن تصبحي مثلي.

– لا تحرِّف الكلام.. أنا في الأصل يائسة من الدنيا وما فيها، وعندما رأيتك ظننت أنك مثلي، ورغبت أن أقلدك.. ولكنك في الحقيقة بتفاهتهم وأكثر.

– هكذا هو الإنسان يرى كل شيء أمامه كما يريد أن يكون، وهذا أكبر الأخطاء الشائعة.

– لم أطلب منك أن تدلني على أخطائي، وأنت كلك أخطاء..

(أكمل وكأنه لا يريد أن يسمع ما قلته)..

– ومن أكبر الأخطاء أن يغيركِ الآخرون للأسوأ لأنك أحببتهم.. كنتِ يائسة، وعندما رأيتِني ازداد حبك لليأس، ولكن كنتِ مخطئة، فاليأس لا محبَّ له.. كان يجب أن تنقذي نفسك، لا أن تغوصي فيه!

(كنت أستمع لما يقوله بوجه ناشف)

صمت لبضع ثوان ثم أكمل:

أنا فقط أحب وأرغب دائمًا أن أنفرد وحدي، لا لأنني أكره الآخرين أو أخافهم أو ما شابه، ولكن لأن نفسي تحتاج إلى بعض الهدوء، ولأنني

أحب التخطيط ليومي ولحياتي المستقبلية بهدوء، وهكذا أكون قد كشفت لك سر الورقة والقلم..

- كيف لك ألا تكره هذا المجتمع، آه نسيت أنك منهم!

- الإنسان الذي خلقه الله وفضله على سائر الكائنات، كيف لي أن آتي أنا وأحكم عليه. فأنا أيضًا من البشر.

- (صمت قليلًا، وعندما رآني أنصت له أكمل..)

- جربي أن تكوني قريبة من الله، فالله لا يحب اليائسين.. ابقي متفائلة دائمًا.. أنصحك بالصلاة والعبادة.. أنصحك بالابتسامة والأمل الدائم.. أنصحك أن تبتعدي عن اليأس، فإنه لا يفيد بشيء.

- أمل، تفاؤل، حياة! ما كل هذه الكلمات؟ لا أمل في حياة دنيا كهذه!!

- «حياة»! من البارحة وأنا أريد أن أختار لك اسما آخر، فالإنسان شبيه باسمه، فلا أمل لـ«سراب».. أريد أن أناديكِ بـ«حياة» إذا سمحت لي.

(وقفت غاضبة)..

– أنتَ أخذتَ من وقتي الكثير، أعدني إلى المنزل..

– بالطبع سأعيدك يا «حياة»!

– لا تنادِني بهذا الاسم مرة أخرى! والأفضل ألّا أراك، فلا «حياة» لـ«سراب» كما قلتَ أنتَ!!

عند وصولنا قال «جاد»:

– على أمل أن نلتقي مرة ثانية قريبًا جدًّا..

لكني لم أعرِه أي اهتمام.. دخلت المنزل، واستلقيت على ظهري متذكرة كل ما قيل في ذلك المكان الهادئ، والأمل الذي كان يتكلم عنه.. كدت أن أنام، ولكني تذكرت أنني لم آخذ أوراقي.. في تلك الليلة لم أنم باكرًا، ولهذا استيقظت عند السابعة صباحًا، أسرعت على شباك غرفتي لأنادي «جادًا» من أجل الأوراق، ولكنه كان قد غادر المكان..

اليوم –وبعد أن مرَّ شهر تقريبًا– ها أنا أرتدي بدلتي السوداء، وأهيئ نفسي، وأعود «اليائسة الأنيقة».. خلال ذلك الشهر لم أُرِهِ نفسي.. كنت أراقبه خلسة بينما كان ينظر بين الحين والآخر إلى غرفتي لعله

يراني.. أما عن اليوم، فقررت الجلوس على ذلك المقعد قبل موعد مجيئه ببضع دقائق، لأستجمع قواي وأرتب كلامي حين مجيئه. حين وصوله اقترب مني مبتسمًا..

- صباح الخير يا «حياة»، ما هذا الصباح الجميل!

- صباح الخير.

- أيمكنني أن أشاركك الجلوس؟

- لماذا أرى أن الجميع وحوش؟ (سألته وكأني قلت له: أريد أن تحدثني مطولًا)

- هناك الطيب والقبيح، والجيد والسيئ.. ليس كل من حولك متشابهين. أنا لا أقول إن كل البشر جيدون، ولكن أعطِ نفسك فرصة واحدة لتتعرفي على الآخرين.. فمثلًا يمكنكِ أن تتعرفي عليّ أكثر، وتأخذيني عينة من هؤلاء البشر..

- أيمكنني أن أسألك؟

- بالطبع.. أسمعك.

– رغم معاملتي السيئة لك، ها أنت اليوم –وبعد شهرين– ما زلت لم تملّ من المجيء إلى هنا والنظر إلى غرفتي للاطمئنان عليّ.

– يعني أنكِ كنتِ تريننِي طيلة الشهر الذي مضى! وأنتِ أيضًا لم تملي من ملاحقتي من مكان إلى آخر؟

– كنت أحسبك يائسًا مثلي، أما الآن فلا أطيق رؤيتك.

– أما أنا فأراك نعمة قد أدخلها الله على حياتي.. (ارتبك قليلًا ثم أكمل).. أعدُّ نفسي أنني المذنب فيما وصلت إليه يا «حياة»، وأريد مساعدتك..

– أتظنني سأصدق ما تقول؟

– ولِمَ لا؟

– متأكدة أن وراء كل مساعدة مصلحةً!

– مصلحة ماذا يا «حياة»؟! أنا لا أريد إلا مساعدتك، فهل ترين أن هناك مصلحة لأحد يود مساعدتك؟

– فهذا الذي لم أفهمه، وهذا الذي لا يفارق تفكيري، ما هي مصلحتك معي؟

– قلت لك أنني أرغب في مساعدتك ليس إلا يا «حياة».

– (بدأت أكزّ على أسناني بغضب مكتوم).. حياة! حياة! قلت لك أنني «سراب»، لا تنادِني بهذا الاسم..

– أمرك يا «حياة»! (مبتسمًا).. اعذريني، فقد أصبح موعد رحيلي. (ثم أعطاني بطاقته) هذا رقم الهاتف.. كلميني عليه إذا أردتِ أي مساعدة..

مرَّت عدة أيام وأنا أنتظره كل يوم بأناقتي اليائسة ليأتي، ولكنه لم يعد يأتي كعادته! تُرى ما به؟ أيُعقل أنه قد ملّني؟ أم أنه قد أصابه مكروه ما؟ أم ماذا حصل لـ«جاد» يا تُرى؟ وكيف أفكر به أصلًا؟ متى حصل وبدأت التفكير؟ هل هو أيضًا يفكر بي؟ لا أنكر أنني شعرت بالقلق عليه.. هل أكلمه؟ ولكن ماذا سأقول له؟ تذكرت الأوراق التي ما زالت معه.. رن الهاتف، وها هو يسرع بفتح الخط وكأنه ينتظر..

– مرحبا، جاد؟

– حياة، كيف حالك؟

– كلمتك من أجل الأوراق، مضى على ذلك الكثير، أما حان الوقت لأخذها؟

– بالطبع! بالطبع يا «حياة»، عند الساعة الخامسة بعد الظهر سأنتظرك ونذهب لذلك المكان الهادئ.

كنت سأعتذر، ولكنه أنهى المكالمة، ولكن عن نفسي فهذا الذي كنت أريده، الذهاب لذلك المكان الهادئ، ولعلي اتصلت به من أجل ذلك.. ما أدراك ما الإنسان!

عند وصولنا بدأت أنظر إلى جمال المنظر، وقلت بصوت مسموع:

– أشتاق إلى الهدوء، ألا يكون في داخلي بركان.. ألا أفكر.. ألّا أخاف.. أن أكون طبيعية.. أشتاق إلى أن أُخلق من جديد.. أن أنزع معاناة سنواتي التي مضت من داخلي، وأسير فارغة من أي معاناة.. أو ألّا أكون!!

تعبت من وجودي الذي لا فائدة منه.. تعبت أنا من يأسي..

- هل تعتقدين أن الله –تعالى– قد يخلق شيئًا من غير فائدة؟ فإن النملة يا «حياة» قد خُلقت لفائدة عظيمة.. لا تحسبي أنه لا فائدة لك..

- لم أرَ في هذا العالم ما يجعلني أسعد، ودائمًا أتساءل كيف يمكن أن ترتسم على وجوههم ابتسامة في دنيا لا بهجة فيها..

- الأمل يا «حياة»، الأمل الذي زرعه الله بنا هو الذي يجعلنا مبتسمين رغم خراب الكون من حولنا.

- أنا يا «جاد» لا أفرق بين ليلي ونهاري.. لا أفرق بين الألوان.. أنا يا «جاد» قد انطفأت عيني ولم أعد أرى شيئًا منيرًا.. وأنت تدعوني إلى حب هذه الدنيا التافهة.

- لا أدعوك إلى حبها، فإنها ما سُميت دنيا إلا لدنوها.. إنما أدعوك إلى زرع الأمل في روحك التي ما خُلقت لتعذبيها..

(قرر «جاد» أن نجلس ثم أكمل) – دعينا نبدأ بتناول الطعام، في الحقيقة ما زلت لم أشرب إلا فنجان قهوة من ضغط العمل.

– وما يمنعك؟ تفضَّل! يمكنك أن تبدأ.

– ولكنك بالتأكيد ستشاركينني.

– لا أرغب.

– ولكن هكذا ستمنعينني أنا أيضًا!

بدأنا، وكان وجهي ما زال عابسًا، عند انتهائنا أكمل «جاد» حديثه قائلًا:

– أنا لا أدعي حبي للحياة الدنيا، وأعترف أنني أرى كمًّا من الأمور المزعجة والتافهة في بعض الأوقات، وكما أنني أرى أشخاصًا تافهين لا أنكر ذلك، ولكن لا أبتعد عنهم وأخاف منهم وأحزن بسببهم. خوفك منهم هو بحد ذاته أمر مزعج..

– ماذا تقصد يا هذا، أنا لا أخاف منهم.. إنما أخاف الجلوس معهم ومعاشرتهم.. إني أخاف أن أصبح كالآخرين..

– ولكنك على هامش الدنيا تجلسين يا «حياة».. كيف يمكن أن تتأكدي أنهم غير جيدين وأنتِ ما زلتِ لم تعاشري أحدًا منهم..

– كيف يبتسمون يا «جاد»؟!

– أنتِ بيدك يا «حياة»، يمكنك فقط أن تجعلي كل ما حولك سعيدًا.. دعيني أعلمك كيف يبتسمون...

– ولكن، أيُعقل أن يبتسم المرء وكله يأس؟!

– انفضي غبار اليأس وابتسمي، فالابتسامة تقلب اليأس إلى أمل وحب..

– أنا يأسي يا «جاد» وصل إلى أقصى مراحله.

– لا أعتقد ذلك، فأنت ما زلتِ جميلة وأنيقة.. وواحدة بجمال وجهك هذا لا أعتقد أنها وصلت إلى أقصى مراحل اليأس، فإن الله –مما لا شك فيه– سيسخر لها مَن ينقذها من هذا اليأس، ويزيح عنها سور السواد الذي بنته عبثًا (وأشار إلى نفسه مبتسمًا).

بدأت حياتي تتغير شيئًا فشيئًا، عندما اقترب جاد منها أكثر.. وبدأت أشاركه جلوسه كل يوم عند الخامسة فجرًا على ذلك المقعد الذي بدأت أراه أمني ومأمني.

وكان «جاد» يأخذني في بعض الأيام إلى ذلك المكان الهادئ، ونتحدث كثيرًا لنزيح هذا السواد الذي كان يحجب نور الحياة..

أتى يوم أراد فيه «جاد» أن يضحكني، ونجح بهذه المهام، وعند عودتي إلى المنزل، دخلت الغرفة ونظرت إلى المرآة، فكانت المرة الأولى التي أرى فيها وجهي مبتسمًا، وعينيَّ فيهما دمعة سعادة.

كيف لي أن أستسلم لهذه الدنيا؟ كيف لي أن أضحك بهذا القدر؟ فبدأت ضحكتي تتقلص، وعيناي تذبل، فأنا أعتذر منك يا أمي على أنَّ وجهي مزهر اليوم.. أعتذر يا أمي، فلا تقلقي، أظن أن اليأس ما زال عالقًا بروحي.

وفجأة دقّ الباب، وإذا بـ«جاد» يحمل حقيبتي، وعندما رأى كيف تبدل حالي قال:

- أين ضحكتك الجميلة يا «حياة»؟؟

- تذكرت يأسي، وعلمت ألَّا مكان لها عندي..

ودّعني وكأنه لم يعر كلامي أي اهتمام بعد أن أعاد لي حقيبتي التي كنت قد نسيتها في السيارة..

في اليوم التالي عند الخامسة فجرًا جلسنا صامتين ناظرين إلى البحر.. وأظنه كان يفكر كيف سيبدأ بفتح حديث مشوق معي.. ثم قال مبتسمًا:

- وأنا صغير في الصف الثاني، أتذكر أن أبي جلب لي دراجة جميلة جدًّا، فقررت أن أذهب بها إلى المدرسة لأريها لزملائي..

- وماذا حصل؟ هل فعلت ما قررته؟

- لم أذهب في حافلة المدرسة في ذلك اليوم، وقلت لأمي أنه لا داعي أن توصلني إلى الحافلة أمام منزلنا، وتأخرت قصدًا، وظن السائق أني غائب، وبعدها مسرعًا ركبت الدراجة وسرت وراء حافلة المدرسة.

- وهل بالفعل وصلت إلى المدرسة بتلك الدراجة؟

- وقتها تاهت الحافلة مني، وضعت بين الشوارع والمفارق، وأصبحت في حيرة هل هذا الطريق أم ذاك!

- لا تقل لي أنك لم تخف حينها.

- بل ارتعبت! توقفت جانبًا، وبدأت أنظر تائهًا، وبعدها تذكرت كلام أمي عندما قالت لي مرة: «من يسأل لا يتوه»، واطمأننت حينها قليلًا، فسألت أول مارٍّ من جانبي عن الطريق إلى المدرسة، ولكنه لم يتركني وحدي، فاصطحبني وأخذني بسيارته، وأوصلني إلى مدرستي..

- ألم تخف من أن يختطفك ذلك الرجل؟

- ولِمَ أخاف من إنسان يريد أن يساعدني!

- كيف كانت لديك الجرأة لأن تطلب المساعدة من الناس في عمر صغير جدًّا؟

- من صغري علمتني أمي أن أثق بوجود الكثير من الأشخاص الطيبين والقليل من السيئين، فهل سأعتبر الجميع سيئين بسبب هؤلاء الأقلية؟ وكيف يمكن للمرء أن يعيش وحيدًا دون طلب المساعدة إذا كان بحاجة ماسّة لها؟

- (شردت قليلًا وقلت) الأمهات لديهن قوة خارقة على تغيير كل شيء. (ثم أكملت) لا أظن أن ما تقوله صحيح.. لا أوافقك

الرأي، فيجب على المرء أن يأخذ كل احتياطاته في التعامل مع الآخرين.

- وهل ترفضين مساعدة شخص محتاج إليك؟

- إذا كان باستطاعتي المساعدة، فسأساعده، ولكن من يطلب المساعدة مني؟ مِن إنسان كله يأس، وليس بيده حيلة أن يساعد نفسه حتى، فأنا لا أفيد بشيء.

- من يريد الفوز حتمًا في الحياة الآخرة، فإنه يجب عليه أن يكون في الأرض جنديًّا من جنود الله، ويمكنه أن يساعد ولو بشيء يسير، وأنتِ قد قلتِ إنه إذا كان بإمكانك المساعدة، فستفعلين، والكثير من الآخرين يُطلب منهم، وقد يكون باستطاعتهم المساعدة أيضًا.. (شرد قليلًا ثم أكمل).. ستعلمين يومًا أنك تساعدين دون معرفتك يا «حياة»..

- ماذا تقصد؟

- لا عليكِ.. ألا تريدين أن تعرفي ماذا حصل بعد ذلك؟

- أظن أنه اختطفك بدلًا من مساعدتك!

- بل إنه وصّلني، وقدّم لي بعض النصائح..

- وماذا ستستفيد من نصائح الآخرين؟

- قال لي بأنني في عمر صغير على أن أفعل ما أريده، ودراجتي الجميلة تلك قد يعجز زملائي عن شرائها، وقد يتحسرون على أوضاعهم المادية، وهذا من الممكن أن يسبب مشاكل في عائلاتهم، وقال إنني يجب أن أستمتع بما لديّ من أشياء جميلة، ولكن دون جرح مشاعر الآخرين.

- أظن أنه قد أخذ دراجتك بحجة أنك غير قادر على إرجاعها إلى المنزل؟

- أوصلني إلى المدرسة، وسألني عن عنوان المنزل، ليعيد دراجتي إلى حديقة المنزل.

- وهل هذا ما حصل!! (بسخرية)

- طوال اليوم وأنا أفكر بدراجتي، وهل سأجدها في المنزل؟ كنت خائفًا عليها بالطبع، وعندما عدت كانت هناك، وكان قد وضعها دون أن يخبر والدي.

– تريدني أن أصدق ما سردته؟ أظن أن هذا الرجل من وحي خيالك.

– هذا ما حصل معي، وبعدها بدأت أشعر بالآخرين كثيرًا.. أستمتع بأشيائي دون نيتي للفت الأنظار، وأظن أن هذا الذي ساعدني للوصول إلى النجاح..

قام وودعني طالبًا مني أن أهيئ نفسي عند السابعة مساءً للذهاب إلى المكان المعتاد..

عند وصولنا، بدأ يسألني وكأنه كان مخططًا لهذا الحديث:

– حدثتك في صباح اليوم عن موقف حصل معي في طفولتي، وأنتِ حدثيني عن طفولتك يا «حياة»!

– قلتَ طفولتي؟!

– وهل أخطأتُ بسؤالي؟

(شردت قليلًا وعلى شفتي ابتسامة يائسة، وفي عيني حزن عميق لا أحد يعرفه)

– في طفولتي أيضًا كنتُ أخاف من الآخرين.

– هل حصل معكِ ما جعلكِ تخافين منهم؟؟

– لم يحصل معي شيء..

– وماذا عن والديك؟

– أبي إنسان صافٍ.. أحبه كثيرًا، ويا ليته كان يعلم كم كانت تحبه ابنته!

– ووالدتك؟

– أمي! كنت دائمة الشجار معها في صغري، بسبب نظرتها إلى الآخرين، ولكن تبين لي عند مغادرتها هذه الدنيا أنها كانت على حق بأن تخاف منهم.

– كيف؟

– في صغري لم أكن هكذا، كنت أحب الجميع، ولكن أمي كانت تخاف عليّ كثيرًا..

– ماذا كانت تقول لك؟

– لم أكن أحب نظرتها للناس، كانت تمنعني من الذهاب عند أي أحد، وكانت توبخني لئلَّا أثق بأحد بتاتًا.. لم أكن أخاف منهم حتى سن العاشرة عندما فارقت أمي الحياة.. كنت أقول إن الجميع جيدون.. كنت أُجبر على الخوف منهم والابتعاد عنهم دون رغبتي بهذا، حتى صرت بالفعل هكذا..

عندما رحلت أمي قررت أن أصبح مثلها، وأيقنت ألَّا أحد مثل أمي يعرف حقيقة البشر.. وعندما رأيتك تجلس وحيدًا ظننت أنك مثل أمي، فأحببتك ليأسِك!

– وهل بالفعل رأيتِ شيئًا من البشر يا «حياة» لتبتعدي عنهم؟

– لم أحتكَّ بهم أصلًا لأرى مساوئهم، ولكن عند وفاة أمي بدأت أفكر أنها لو لم ترَ شيئًا منهم، لَمَا ابتعدت عنهم، فأصبحت مثلها وأكثر؛ فأنا الآن على يقين بأنهم كلهم سيئون..

– وماذا عن معارضتك لرأي أمك قبل وفاتها؟

– كنت في بادئ الأمر أجلس مع صديقاتي في المدرسة، أما خارجها فكانت أمي تمنعني من الخروج إلا معها، وكانت ترفض مجيء صديقاتي إلى المنزل بسبب أفكار كنت أعتبرها خيالية،

فكنت لا أرى أحدًا إلا في المدرسة، ورويدًا رويدًا وبعد ضغط أمي الذي لا يُحتمل، أصبحت أبتعد عنهم في المدرسة، وبعد وفاتها صرت أجلس وحيدًا تمامًا، لا أتكلم حتى مع أساتذتي.

– أتؤمنين حقًّا يا «حياة» أن جميع من حولك سيئون؟

– (شردت قليلًا) وهل ترى غير ذلك؟

– عن نفسي متأكد أنك تؤمنين بوجود الخير والجمال في هذه الدنيا..

– ما هذه السخافة؟

– أنت يا «حياة» لعلك حزينة لأنك لم ترضي أمك، ولم تفعلي ما كانت ترغب فيه، وتحاولين تنفيذ ما كانت تفرضه عليك لترضيها في وفاتها.. ولعلك يا «حياة» اعتدتِ جلوسك وحيدة دائمًا، وأصبحتِ ترين صعوبة في التعامل مع من حولك..

– ليس كذلك، فأنا أكره الآخرين وتفاهتهم..

– بل اعتدت ذلك يا «حياة»..

– أرجو منكَ أن تكفَّ عن الكلام..

صمت «جاد» لكيلا يزيد من غضبي ويفسد الجلسة، وأكمل قائلًا:

– ما لونك المفضل يا «حياة»؟

– وهل ترى غير الأسود لونًا مفضَّلًا لليائسين؟! ماذا عنك؟ أراك ترتدي الأسود دائمًا.. ماذا ترى فيه غير الكآبة والحزن؟

– أراه دليل على الأناقة والجمال، فأنا لا أرى فيه ما يدل على الحزن!

– كنت أسميك «اليائس الأنيق» قبل أن يخيب ظني بيأسك!

– لقبيني «الأنيق» فقط، وابعدي عني اليأس.

بعد بضعة أيام أصابني إرهاق شديد، ولم أستطع أن أجلس فجرًا على ذلك المقعد مع «جاد».. عند ظهر اليوم اتصل بي «جاد» هاتفيًّا للاطمئنان عليَّ، وشعر أنني لست على ما يُرام، فأتي إلى المنزل ومعه باقة من الورد.. وبعد وقت من اهتمامه بي –حيث أعدَّ لي الحساء وجلب لي الدواء– وضع كرسيًّا بجانب السرير وجلس عليه.

تكلمنا كثيرًا حتى نمت ولم أعد أشعر بشيء.. استيقظت في اليوم التالي، وإذا بـ«جاد» ينام مطأطئ الرأس على الكرسي. نظرت إليه.. أتذكر كل اللحظات السعيدة التي كنا بها معًا، وها هو الآن ينام مرهقًا على الكرسي من أجلي.. هل يُعقَلُ أن يهتمَّ بي إلى هذا الحد؟ هل يُعقل أن يحبني؟ هل يُعقل أن يكون رجل الأعمال المشهور قد أحب فتاة مثلي...؟ فتاة يائسة –شكلًا ومضمونًا–.. فتاة لن تنفعه بشيء، بل ستجلب له المتاعب!

استيقظ «جاد» وأنا ما زلت شاردة فيه، فبادلني النظرة، ثم قلت بصوت مسموع:

– ماذا تخبئ يا هذا، ولِمَ هذا الاهتمام كله؟

– (ارتبك قليلًا) صباح الخير يا «حياة».. كيف أصبحتِ؟

– صباح الخير.. الحمد لله.. أفضل حالًا من البارحة.

– سأذهب قليلًا ثم أعود إليك. لن أتأخر.

بدأت أفكر بـ«جاد»، وهل هو بالفعل إنسان طيب أم أنه يضمر شيئا!

تذكرت كيف استطاع أن يضحكني، وكيف أنه قرر أن ينفض عني غبار اليأس. كنت قبله كئيبة كأن ستارًا أسود يحجب عني ضوء الشمس والأمل.. وأعترف بأنه عندما اقترب مني أصبح ذلك الستار يظهر النور رويدًا رويدًا.. لا أدري هل سينكشف ضوء الشمس كله، أم سيبقى محجوبًا! خائفة من الحياة ومن الدخول إليها، وكأنني أفتح بابًا لا أدري ما خلفه، خائفة من الجميع بعد أن كنت على هامش الحياة، لا أدري هل أنجح أم أعود إلى ما كنت عليه! ولكن أعترف بأن «جادًا» أعطاني أملًا يمكنه أن يجعلني ألقي بعض يأسي جانبًا، ولكن خائفة من أن يخيب ظني بـ«جاد»..

بعد ساعات جاء «جاد»، وكان قد بدّل ملابسه ودعاني أن نجلس قليلًا أمام البحر.. حين وصولنا جلب «جاد» العصير الطازج ومعه كرواسون.. شكرته، وبدأنا نأكل معًا بهدوء تام..

– كم أن الحياة جميلة حين تراها بعيون المتفائل!

– إنها جميلة يا «حياة»! فقط ابقي مبتسمة، ولْيَبْقَ الأمل يملأ قلبك، وستكونين أنت المتفائلة التي يرى الناس الحياة جميلة بعينيها، وهذا الشيء سيزيدك حياة.

– ألم ينتابك اليأس ذات يوم؟

– لا يجب أن يكون لليأس مكان بيننا، فكيف لنا أن نيأس يا «حياة» والله أقرب إلينا من حبل الوريد؟! كيف لنا أن نيأس والله يدبر لنا الأمور؟! فأنا أرى أن اليأس أقرب إلى معصيةٍ.

– أتراه معصيةً؟

– نعم، فأن تيأسي يعني أنك فقدتِ الأمل والثقة بالله.. دعينا لا نطيل الجلوس، فأنتِ ما زلتِ متعبة.

– (عندما وصلت إلى المنزل) شكرًا لكَ على كل ما قمت به من أجلي.. يسّر الله أمرك.

– ادعي لي كثيرًا، فأنا أحب أن يدعو لي الآخرون بالخير دائمًا..

مرّ يومان تقريبًا عندما أصبحت في أحسن أحوالي، ولكن ما زال بعض من اليأس يغمر حياتي.. جلسنا أنا و«جاد» عند الخامسة فجرًا كالعادة.

– أرى بريقًا في عينيك لأول مرة يا «حياة».

– أنت مَن منحني الأمل، فإن رؤية الأمل الدائم في عينيك والابتسامة على شفتيك يعدي جميع مَن جالسك.

– (خفض «جاد» رأسه وقال مبتسمًا) أخجلتِني يا «حياة».. كلامُكِ أسعدَ روحي.

مرَّتْ ساعة –تقريبًا– على جلوسنا، وإذا بهاتف «جاد» يرنّ، فاستأذنني مسرعًا، وكأن المتصل في غاية الأهمية.. وحين تأخّر «جاد» رحت لأقول له إنني يجب أن أصعد إلى المنزل، ولكن دون قصد مني سمعته يقول: «لم يبقَ لدي إلا القليل، وأظن أنها ستكون كما أريد!»..

لم أدرِ حينها عمَّن كان يتكلم.. أغلق الهاتف مرتبكًا حين شعر أنني وراءه وقال:

– «حياة»! أعتذر إذا كنت قد تأخرتُ.. كنت أكلّم صديقي في أمر مهم في العمل.

– وهل كل شيء على ما يُرام؟

– نعم يا «حياة»، لا تقلقي.. ما رأيك بالذهاب إلى النهر يوم الأحد؟

وافقتُ في بادئ الأمر، ولكن عندما قال لي أن أصدقاءه سيذهبون معنا، ارتبكت، وقلت إني سأحاول الذهاب.

– لِمَ شعرتُ بترددك حين قلتُ إن أصدقائي سيذهبون معنا؟

– أخشى أن أكون في تلك التجمعات.

– كوني صادقة وقولي لي ما تشعرين به.

– أشعر أنني ما زلتُ أخاف من الجلوس مع الآخرين.

– وماذا عن جلوسك معي؟

– أنت أصبحت مختلفًا عنهم، عندما أكون معك أشعر بالارتياح أكثر من الجلوس بمفردي.

– تجاوَزي خوفك يا «حياة»، وتعرّفي على أصدقائي.

– أتظن أنني سأنجح؟

– بل متأكد!

أتى يوم الأحد.. استيقظت متوترة.. اتصل بي «جاد» هاتفيًّا لكي نفطر معًا، حين جلوسنا كان «جاد» ينظر إليَّ وكأنه يعتذر مني بسبب شيء، ويبتسم ابتسامة قلقة..

– ما بك اليوم يا «جاد»؟

– بخير، وأنتِ كيف حالك؟

– قلقة بشأن ذهابي مع أصدقائك.

– «حياة»، سامحيني إن كنتُ قد أخطأتُ بحقِّكِ.

– أنت نقلتني من اليأس يا «جاد».

– آمل هذا.. اشتريت لك البارحة فستانًا جميلًا لترتديه اليوم عند ذهابنا، أتمنى أن ينال إعجابَكِ.

حان موعد الذهاب، وهيأت نفسي، وارتديت الفستان الذي جلبه لي «جاد». كان لونه أبيض، وفيه ورود زرقاء.

حين رآني «جاد» نزل من سيارته محدقًا بي بعيون ملؤها الإعجاب، وفتح لي باب السيارة ثم انطلقنا.. عند وصولنا لوح أصدقاء «جاد» لنا، وكان المكان آيةً في الجمال والروعة.

أحد أصدقاء «جاد»: ألا تريد أن تعرِّفنا على هذه الجميلة؟

– اسمي «حياة»، أنا صديقة «جاد».

صديقة «جاد»: أأنت «حياة»؟ «جاد» دائم التحدث عنك، أنتِ أجمل وألطف مما كنتُ أتخيل.

(زادتني تلك الكلمات ارتياحًا وزاحت عني القلق قليلًا)

أمّا عن أصدقاء «جاد»، فكانوا ينظرون إليه نظرات ذات معنى، وكأن بينهم همزًا ولمزًا!!

كان «جاد» كلما رآني أجلس وحدي، طلب من صديقاته أن يجلسن معي.. تأقلمت مع صديقاته، ولم أجد صعوبة في التعامل معهن.. وكنت أرى بداية حياتي في ذلك اليوم..

بعد ساعات رآني «جاد» أجلس وحدي، فشاركني الجلوس، وسألني عن رأيي بأصدقائه..

– أصدقاؤك مثلك.. طيبو القلب، وجميلو المعشر..

– وهم أيضًا أحبوك وطلبوا مني أن أصطحبك معي في كل أوقات لقائنا.. (أضاف «جاد»): سعدت أنك عرفت عن نفسك باسم «حياة»!

– أنت من اخترته لي، فأنا قد نسيت أيامي الماضية بفضلك.. أشكرك.

– أنا الذي أشكركِ، لأنكِ سمحتِ لي أن أساعدكِ..

(شعرت وكأن جلستنا تلك هي الأخيرة) جاء أصدقاء «جاد» ليأخذوه بعد أن أشار لصديقاته كي يجلسن معي..

– (صديقة «جاد»): أستغرب من «جاد»! كيف ما زال لا يمل من الدراسة؟!

– وهل ما زال يدرس؟

– نعم، وإنه مجتهد جدًّا وهذه السنة سينهي الدكتوراه، رغم أن لديه شركات كبيرة ومشهورة، فإنه يختار دائمًا الثقافة والعلم.. أين هم؟ ألم يحن وقت عودتهم؟

(بادرت أن أناديهم بعد أن قالوا لي أنهم في غرفة تغيير الملابس)

كنت لأطرق الباب، ولكن كان يدور بينهم حوار، فقررت أن أسمعه لأني سمعت اسمي صدفة..

- ماذا ستفعل «حياة» إذا علمت أنها حالة تعاينها؟

- لا أدري، أنا مرتبك، سرت بطريق لا يشبهني، لكنني كنت أريد مساعدتها لا أكثر..

- مساعدة مَن يا «جاد»؟! ألم تذكر أننا اشترطنا أن تخرجها من حالتها الميؤوس منها..

- اذكر هذا جيدا، ولكن بعد وقت قصير أصبح هدفي مساعدتها.. ومن بعدها أصبح الأمر يفوق المساعدة يا صديقي..

(أنا كنت مجرد حالة بالنسبة لـ«جاد»!!)

عدت أدراجي، وشعرت بالخِذلان والخيبة.. فتح صديق «جاد» الباب وتفاجأ من وجودي، ركض «جاد» وعلامات الارتباك والخوف بادية على وجهه:

– «حياة»، كنت سأعترف لك بكل شيء، ولكن كنت أحتاج إلى بعض الوقت حتى أستطيع الاعتراف بالحقيقة..

وكأني لم أسمع شيئًا، وكأن كل ما قاله كدوامة، كأصوات أمواج عاتية في بحر هائج، أرى شفاهًا تتحرك ولا أسمع إلا الضجيج.. ذهبت كمعركة خسروها دون أن يرفعوا سيفًا.

أما «جاد» فكان يتبعني وينادي ويطلب مني أن أتوقف، إلا إنني عند عبوري الطريق سمعته يقول لي أنه يحبني! ورحت لألتفت نحوه، ولكن وكأن الحياة لا تريدني أن أكون فيها كالباقين، وكأنها ترفضني دائمًا.. بدأت أرى الكثير من الأشخاص بوجوه مختلفة يجتمعون حولي، وكانت السيارات تنساب حولي ببطء كالنهر، وبدأت أبحث بين تلك الوجوه عن «جاد» بقلب يدق كطبول أفريقيا المجنونة، ولكني بحثت كثيرًا ولم أجده! وكأنه كان خيالًا في حياتي!

وبعد لحظات سمعت صوتًا فوق رأسي يرتجيني أن أبقى على قيد الحياة! فها هو «جاد» يضع رأسي على رجليه ودموعه تنهمر على جبهتي، ويقول لي: «لا تذهبي يا حياة!».. ولكن مهما ناديتني بـ«حياة»، فسأبقى «سراب» التي لا حياة لها.. وها قد وصل الإسعاف بالأصوات والأضواء المزعجة، وحملني مسرعًا وبجانبي «جاد»..

هـا أنا آتيـة إليـكِ يا أمـي! وأعلـم أنـك سـعيدة لأنـني سـأفارق الحيـاة.. وأعلم أنك غاضبة مني لأني خالطتُ الآخرين، وبالأخص «جاد»، الذي خيَّب ظني، ولكني أحببته يا أمي! الآخرون لا بأس بهم.. وكما قال لي «جاد» أن في داخلي حبًّا للحياة، ولكني اعتدت الابتعاد عنهم والخوف منهم...

شعرت أني ألتقط أنفاسي الأخيرة، وأنني سأرحل لا محال.. قررت أن أوجّه كلامي الأخير لـ«جاد»:

- ما فعلته بي كان قاسيًا.. جعلتني أعيش بوهم أن الآخرين جيدون قلت لك أن كل مساعدة من قِبل البشر وراءها مصلحة.. وها أنت ذا خيّبت ظني رغم وثوقي أنه لم يكن ليخيب.

- أعتذر يا «حياة»! أنتِ فقط كوني بخير، وأنا سأصلح كل شيء.

- دعني أكمل كلامي قبل ذهابي.. أوراق كثيرة في غرفتي ستخبرك بكل ما في قلبي، وكيف أنك كنت نجمي.. أمَّا الآن فاهبط يا نجمي...

وكنت سأكمل بأنني أسامحه لكيلا يحمّل نفسه الذنب.. لم أكن أريده أن يصبح يائسًا.. كنت سأقول له: «عش حياتك»! ولكن لم يبقَ

لـ«سراب» روح، لا صوت لها ليُسمع.. كنت أريده أن يكون كما عرفته عن حق، وليس كما ظننت أن يكون.. ابق كما أنت يا «جاد»، ولا تعش على ذكراي..

بدأ جاد يهزني والمرض فوق رأسي يقول: «للأسف فقدناها» بعد أن حاول إنعاشي! لكن الغريب أن قطرات دموع «جاد» لم تنزل ولم أشعر بها.. أملي ألَّا تصبح يائسًا!! أين دمعتك يا «جاد»؟ اجعلها تهطل على وجهي.. لا تخبئ حزنك، فأنت طبيبٌ نفسيٌّ، وتعلم جيدًا أن البكاء عند الصدمة هو أفضل حل!

ها أنا أصبحت سرابًا بالفعل.. بعد ثلاثة أيام من رحيلي عن هذه الحياة تبحث روحي في أرجاء الدنيا عن «جاد»، وها هو يرتدي الأسود ويجلس على ذلك المقعد الذي كان مطّلعًا على حكايتنا. أما عن وجهه فكان كحسرة مكتومة تطير بجناحين من ألم، كان يائسًا بالفعل؛ يقرأ أوراقي التي كنت قد كتبتها منذ أول يوم رأيته فيه، وكيف أنني حسبته يائسًا، وها هو يفتح آخر أوراقي التي كتبتها، وسيعلم ما كنت أكنُّه في قلبي، وبدأ يقرأ بصوت حزين مثل صوت ناي في بستان مهجور: (ها أنا الآن أراقب ابتسامته وليس حزنه ويأسه، أراقبها من

على شرفة غرفتي.. ولا أدري كيف سأقول له أني أحببته بحزنه وفرحه...)

نظر «جاد» إلى شرفة الغرفة، وبدأت دموعه تنهمر كالمطر الغزير...

بعد عدة أشهر، كان «جاد» يجلس على المقعد، يكتب ويشرد ويدخن، كان لا يدخن بلذة، بل بشراهة، وكأنه يريد إحراق شيء ما بداخله.. أظن أنه أصبح يائسًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى! وها قد نشر أول كتاب له بعنوان «جعلتني يائسا».. ونال هذا الكتاب شهرة عالمية.. أهنئك يا «جاد».. حتى في يأسك مبدع!

أحبك كثيرًا أيها «اليائس الأنيق»!

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هذا العمل الإبداعي برعاية دار بسمة للنشر الإلكتروني
بشراكة مع جروب ملتقى الأقلام المُبدعة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لدار بسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

اليأس الأنيق

الخامسة فجراً

نُصِرُّ عَلَى يَأْسِنَا رَغْمَ سَلَامَتِنَا حَتَّى نُصْبِحَ كَالْيَائِسِينَ...
مِنْ لِبَاسِ الْيَأْسِ، إِلَى بِدَايَةِ أَمَلٍ، إِلَى نِهَايَةِ حَيَاةٍ...
هَكَذَا كَانَتْ حَيَاةُ «سراب»!

الكاتبة
أحلام إبراهيم معروف

كلمة للنشر والتوزيع